فصل

فى المذاهب الباطلة

وعن أبى عبيدة رضي الله عنه قال النبى ﷺ: «لتركبن سنن من قبلكم وأحوالهم».

قال النبى ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم. قيل: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)]. عن عكرمة: كل عشرين عامًا يحدثون أمرًا لم يكونوا عليه. كذا فى البغوى.

وقال النبى ﷺ: «ليأتين على أمتى كما أتى على بنى إسرائيل؛ حذو النعل بالنعل، حتى إن منهم من أتى أمه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك، وإن بنى إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق ذلك.

وأن بنى إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، كلهم فى النار إلا واحدة. قالوا: من هى يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابى»[(٣)].

وأنا الفقير وجدتُ فيما تتبعت ذلك فى صنفين؛

أحدهما: من أهل الظاهر، والآخر: ممن يدعى علم الباطن من

---

(١) رواه البخارى، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل، حديث رقم ٣٤٥٦ . انظر فتح البارى ٦/ ٥٧١ .

(٢) سورة الانشقاق، آية ٢٠ .

(٣) رواه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ٥/ ٢٦، وفيه كلام كثير.

أهل التصوف ادعاء، ووجدت ضلالة الصنف الثانى أشد من الصنف الأول، فلا بد من بيان أحوال كلا الصنفين.

أما الصنف الأول وهم المذكورون فى كتب الكلام؛ فمنهم فرق الخوارج، وهم اثنى عشر فرقة. ومنهم الروافض، وهم أيضًا اثنى عشر فرقة. ومنهم فرق القدرية وهم اثنى عشر أيضًا.

ومنهم فرق المرجئة، وهم اثنى عشر أيضًا. ومنهم فرق الجهمية أى المشبهة، وهم اثنى عشر أيضًا، (ومنهم فرق الجبرية، وهم اثنى عشر أيضًا).

فلا بد من بيان أحوال هؤلاء الفرق، وإن أشكل على البعض أحوالهم بناء على قاعدة أهل السنة فى عدم تكفير أهل القبلة، وأنا أذكر ما ورد فى الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة من بيان أحوالهم وأقوالهم.

أما الكتاب قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[1].

وروى عن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لعائشة -رضى الله عنها-: «يا عائشة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء من هذه الأمة»[2].

وقوله تعالى ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ على هذه الرواية معنى الآية: أى أنت برئ منهم، وهم منك براء، أو ليست بيدك توبتهم ولا عذابهم، وفيه

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٩ .

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ٥/٤٤٩ .

حث للمؤمنين أن لا يتفرقوا فى الدين، ويجتنبوا عن البدع ما استطاعوا. والآيات كثيرة فى هذا الباب جدًا.

وأما السنة فهى أيضًا كثيرة؛ عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: قال النبى ﷺ: «صنفان من أمتى ليس لهما فى الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية»(١).

عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «يكون فى أمتى خسف ومسخ، وذلك فى المكذبين بالقدر»(٢).

وعنه عن النبى ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة؛ إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»(٣).

وعن عمر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا تجالسوا أهل القدر، ولا تفاتحوهم»(٤). وغير ذلك.

وأما أقوال علماء الأمة: قال فى الفتاوى البزازية:

«قال الزاهدى: يجب إكفار القدرية فى نفيهم كون الشر بخلق الله تعالى، ودعواهم أن كل فاعل خالق فعل نفسه، ويجب إكفار الكيسانية فى إجازتهم البداء على الله تعالى، وإكفار الروافض فى قولهم برجعة الأموات إلى الدنيا، وتناسخ الأرواح وانتقال روح الإله إلى الأئمة، وإن الأئمة آلهة، وفى قولهم بخروج إمام ناطق بالحق،

---

(١) رواه الترمذى ٤/ ٣٩٥ .

(٢) رواه الترمذى ٤/ ٣٩٧ .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك ١/ ٨٥، وأبو داود ٤/ ٢٢١، والطبرانى فى الأوسط ٣/ ٦٥ .

(٤) رواه الحاكم ١/ ٨٥ .

وانقطاع الأمر والنهى إلى أن يخرج، وبقولهم إن جبريل غلط فى الوحى إلى محمد ﷺ دون على.

وأحكام هؤلاء أحكام المرتدين.

ومن أنكر خلافة أبى بكر رضي الله عنه فهو كافر فى الصحيح.

ومن أنكر خلافة عمر رضي الله عنه فهو كافر فى الصحيح.

ويجب إكفار الخوارج فى إكفار جميع الأمم سواهم، ويجب إكفارهم فى إكفار عثمان وعلى وطلحة والزبير وعائشة.

ويجب إكفار اليزيدية فى انتظار نبى من العجم ينسخ دين سيدنا محمد ﷺ.

ويجب إكفار النجارية: فى نفى صفات الله تعالى، وفى قولهم: القرآن جسم إذا كتب، وعرض إذا قرئ.

ومن قال: إن الله تعالى جسم لا كالأجسام فهو مبتدع لا كافر، ومن قال بتخليد أهل الكبائر فهو مبتدع، وكذا من أنكر عذاب القبر.

ومن أنكر شفاعة الشافعين يوم القيامة فهو كافر، وكذا من أنكر الميزان يوم القيامة.

أما لو أول الميزان وقال هو العدل، فهو مبتدع وضال.

واختلفوا فى المجبرة؛ والصواب إكفارهم فى قولهم: ليس للعبد فعل أصلًا.

ويجب إفكار معمر فى قوله: الإنسان غير المجسد، وأنه حى قادر مختار، ليس بمتحرك ولا ساكن، ولا يجوز عليه الأوصاف الجائزة على الأجسام.

ويجب إكفار قوم من المعتزلة في قولهم: أن الله (يرى ولا يُرى).

وإكفار من قال منهم: إن الله تعالى (لا يرى شيئًا أصلا).

وفي الخلاصة: الروافض إن كان يسب الشيخين ويلعنهما كان كافرًا، وإن كان يفضل عليا (على أبي بكر وعمر لا يكون كافرًا؛ لكنه مبتدع).

والمعتزلي مبتدع، إلا إذا قال باستحالة الرؤية فهو كافر.

والمشبهي مبتدع، إلا إذا أراد باليد؛ الجارحة، فهو كافر.

والمبتدع صاحب كبيرة».

وفي الملتقط سئل أبو حنيفة عن مذهب أهل السنة والجماعة، فقال: «أن تحب الشيخين، وتفضل الشيخين، وترى المسح على الخفين، وتصلي خلف كل بر وفاجر».

وفي الاختيار شرح المختار: «وكل بدعة تخالف دليلًا يوجب العمل به قطعا فهو كفر، وكل بدعة لا تخالف بذلك، وإنما تخالف دليلا يوجب العمل به ظاهرًا فهو بدعة وضلالة، وليس كفرًا.

واتفقت الأئمة والأمة على تضليل أهل البدع أجمع، وسب أحد من الصحابة وبغضه لا يكون كفرًا لكن يضلل، وأن عليا لم يكفر شاتمه حتى لم يقتله».

هذا كلامه، وذيل الكلام فيه طويل.

ومقصودنا؛ بيان بطلان مذاهبهم، وبيان وجوب الحذر عنهم كما قلنا في الدباجة: معرفة النفس مالها وما عليها في فن الكلام.

فينبغي للمؤمن أن يكون على الحذر من خلط المذاهب؛ ومن ذلك كان التوغل في علم الكلام مذمومًا.

لأن الكلاميين خلطوا كثيرًا فى علم الكلام من الفلسفيات، وأدرجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات، وخاضوا فى الرياضيات؛ حتى كاد لا يتميز من الفلسفيات لولا اشتماله على السمعيات.

ومن عادة مشايخ الدين الإعراض عن تدقيقات الفلاسفة؛ لأن دأب الفلاسفة تضييع أوقاتهم فيما لا يعنيهم؛ لاتباعهم العقل الصرف.

من قولهم: إن النفس (أى العقل) لا تدرك الجزئيات المادية بالذات، وقولهم: إن الواحد لا يكون مبدءًا لأثرين، فالكل باطل فى الإسلام؛ «لأن نظر العقل فى الملة يتبع هداه».

لأن سعى العقل فيها تحصيل المعقول من المنقول، «وفى الفلسفة يتبع هواه»؛ لأن سعى العقل فيها تحصيل المعقول مطلقًا، كذا فى شرح المقاصد.

ومعظم المعلومات الدينية مستفادة من الخبر الصادق دون العقليات المطلقة التى فيها نظر الفلاسفة؛ فلذلك ذم الفقهاء الاشتغال فى علم الكلام؛ حتى قال أبو الليث الحافظ: من أشتغل بالكلام محى اسمه من العلماء. كذا فى النقاية فى كتاب الكراهية.

وفى كراهية خلاصة الفتاوى: تعلم علم الكلام والنظر فيه والمناظرة وراء قدر الحاجة منهى.

وفى كراهية وصية لطائف الإشارات[1]: أوصى بأن يباع من كتبه ما هو خارج من العلم وتنفيذ وصاياه، وله كتب من علم الكلام؛ يباع ذلك؛ لأنه خارج من العلم.

---

(١) كتاب لطائف الإشارات أحد كتب التفسير الصوفى للإمام القشرى وطبع فى القاهرة.

والمروى: أن إمامة المتكلم -وإن كان بحق- لا يجوز؛ محمول على الزائد وراء الحاجة والتوغل فيه؛ لأن تعلم علم الكلام والنظر فيه والمناظر فيه وراء قدر الحاجة منهى عنه عند الجمهور(١)، وكذا تعلم علم النجوم قدر ما يعلم به مواقيت الصلاة والقبلة لا بأس به فيه، وما وراء ذلك بمنزلة المرض، فتعلمه حرام؛ كذا فى تعليم المتعلم.

والخلاصة: قيل: عليكم بالعتيق وإياكم والمحدثات؛ فلما كان تعلم علم الكلام منهيًا عنه بسبب خلط الفلاسفة فيه، فكيف الحال فى الوجدانيات المسماة بعلم التصوف والأخلاق.

حيث خلطوا فيه من الترهات والعنديات من أنواع التلبيسات والإلحادات والأباطيل، وكانوا فيها فرقًا لا يحصى، وشيعا شتى، كما قال صاحب البيان فى الفصل الثالث والعشرين فى بيان أهل التصوف: «وهم اثنى عشر نفرًا؛ أحدهم: سنى؛ أفعالهم وأقوالهم موافقة للشريعة والطريقة جميعًا؛ وهم أهل السنة والطريقة والجماعة، فيدخلون الجنة؛ بعضهم بلا حساب، وبعضهم بحساب يسير وعذاب قليل، فيخرجون من جهنم ولا يدخلون الجنة، ولا يؤبدون فى النار كالكافرين والمنافقين.

والبواقى: بدعيون ضالون؛ فمنهم الحلولية، والحالية، والأوليائية، والشمراخية، والحبية، والحورية، والإباحية، والمتكاسلية، والمتجاهلية، والواقفية، والإلهامية.

---

(١) تعلم علم الكلام والمناظرة به، وتقرير مسائل الاعتماد به ممدوح. والإمام أبو الحسن الاشعرى له كتاب «استحسان علم الكلام» نعمل على تحقيقه ضمن من نوادر التراث.

فأما مذهب الحلولية فإنهم يقولون: النظر إلى وجه الجميل من النسوان والأمرد حلال، وفيه صفة الحق، ويرقصون، ويدعون التقبيل والمعانقة. وهذا كفر محض.

وأما الحالية فإنهم يقولون: الرقص، وضرب اليد حلال، ويقولون للشيخ حالة لا يعتبر عند الشرع. وهذه بدعة ليس فى سنة الرسول ﷺ.

وأما الأوليائية فإنهم يقولون: إذا وصل العبد إلى مرتبة الأولياء يسقط عنه تكلف الشرع، ويقولون: الولى أفضل من النبى ﷺ. وهذا كفر.

وأما الشمراخية فإنهم يقولون: الصحبة قديمة، وبها يسقط الأمر والنهى، ويحلون الدف، والطنبور، وباقى الملاهى، ولا حرام بينهم من جهة النساء، فدمهم مباح.

وأما الحبية فإنهم يقولون: إذا وصل العبد إلى درجة المحبة سقط عنه التكاليف، ولا يسترون عورتهم.

وأما الحورية فإنهم كالحالية، لكنهم يدعون وطئ الحور فى حالاتهم فإذا أفاقوا اغتسلوا.

وأما الإباحية فيتركون الأمر بالمعروف، ويحلون الحرام، ويبيحون النساء.

وأما مذهب المتكاسلية فيتركون الكسب، ويسألون الأبواب.

وأما المتجاهلية فيلبسون لباس الفاسق، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَا

تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[١]، وقال ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٢].

وأما الواقفية فإنهم يقولون: لا يعرف الله تعالى غير الله قط.

وأما الإلهامية فيتركون العلم، وينهون عن التدريس، ويتابعون الحكماء، ويقولون: «القرآن حجاب، والأشعار قرآن الطريقة».

وأمثال هذه الأقوال كثيرة جدًا فيما بين هذه الطائفة الضالين المضلين المفترين، نعوذ بالله تعالى من مقالات الضالين ومعتقداتهم، انظر إلى ما قال صاحب فصل الخطاب: «ومن أسرارهم الاطلاع على صحة شرع الله لهم فى هذه الشريعة من حيث لا يعلم العلماء بها؛ فإن الفقهاء والمحدثين أخذوا علمهم ميتا عن ميت، وأخذ أهل الله عن رسول الله ﷺ فى الكشف على الأمر الجلى أو عن الله بالبينة التى هم عليها من ربهم، والبصيرة التى بها دعو الخلق إلى الله تعالى عليها».

انظر: إلى قوله: ميتًا عن ميت، وإلى قول ابن مسعود رضي الله عنه: «من كان مستنًا فليستن بمن قد مات؛ فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرُّها قلوبًا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفًا.

اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

---

(١) سورة هود، آية ١١٣ .

(٢) رواه أبو داود من حديث ابن عمر ج٤/ ص٣٤ .

هذا كلام ابن مسعود رضي الله عنه ، فعليكم بكلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ وكلام أصحاب رسوله، وإياكم وكلام من خالفهم، فالسعيد من وافق أصحاب رسول الله ﷺ فظفره مرجوه مأموله، والشقى من خالف ذلك فهلك بمخالفته وتأويله، وسلك غير سبيل المؤمنين المتقين، غرضه وتعليله كيف يسمع من المبتدع والمخترع قولًا مخالفًا.

وقد أكمل الله تعالى لنا الدين بما أنزله على سيد المرسلين، وما درج بالوفاة ﷺ حتى أوضحه وبينه أحسن تبيين منقول عنه من غير شك، سالم من شرك وإفك، فاتبعه أهل الاصطفاء، وتميزوا فى الاتباع بالإخلاص والوفاء، وزاغ من الحق قلوب المخالفين، فمشوا ضالين مضلين.

فإن كل أمة لابد فيها من فتان وعلى لسانه يلقى الشيطان، ولا يمكن ظهوره إلا زمن فترة هلاك أو شبهة ضلال فى منشأ مراء و جدال.

* «ولما كملت ست مئة عام من الهجرة ظهرت مبادئ تلك الفترة بظهور من ينتسب إلى العلم والتصوف، وأعطى فى ألفاظه نوعًا من التصرف؛ لاكتسابه العلوم الفلسفية والطبيعية وغيرها من العلوم التى لا خير فيها.

فتولد هذه المركبات فى الذهن عبارات وأنواع إشارات بلسان يستغرب، وعند غير العارف التقى يستعذب وهى فاسدة المعانى، واهية المبانى، مخالفة لظواهر النصوص ومعاكسة لقول كل نبى مخصوص».

فمعلوم بغير توقف ولا تخوف أن كل مخالف للكتاب والسنة قوله مردود، وهو عن جناب الحق مبعود، ومن صدقه ضل وعقد دينه به انحل، لقد رأيت الأقول تنشأ من أهل الإرشاد مما تقدم وصفه من الفساد، وكل ما استمر الباطل تأكد فى الظنون، ويغتبط به الجاهل المفتون، فلا بُد من نصر دين الحق من علماء الصدق.

وقد سمعوا منادى الإسلام ينادى الصلاة جامعة للقيام بوجوب فرض لازم، بصحيح عقد جازم، لنصيحة رب العالمين، ونصرة كتابه المبين، ودينه الذى أظهر على كل دين، فإنهم إنما أرادوا الكفر وإفساد الدين، وموهوا عقول الضعفاء من المسلمين، وختلوهم من حيث يأمنون، ولبسوا عليهم فيما لا يعلمون، بإضافة ما قالوا إلى رسول الله ﷺ؛ لعلمهم أن عقول المسلمين قابلة لما جاء عن رسول الله ﷺ، نافرة عما يخالفه، فأضلوهم نعوذ بالله تعالى من الخذلان ومن نزغات الشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1].

فمن صدقهم واعتقد صحة قولهم كان كافرًا ملحدًا فى آيات الله تعالى، مبدلًا لكلمات الله تعالى؛ فيقتل مثل هؤلاء، ويراح المسلمون من شرهم، وإفشاء الفساد بينهم فى دينهم، وهؤلاء قوم يسمون الباطنية لم يزالوا من قديم الزمان ضلالًا لأهل الإيمان، وعادتهم التصلح، والتدين، وادعاء التحقيق، وهم على أسوأ الطريق.

---

(١) سورة الأنعام: آية ١١٢ .

فالحذر كل الحذر منهم؛ فإنهم أعداء الدين، وسوس الملة، وشر من اليهود والنصارى؛ لأنهم قوم لا دين لهم يتبعونه ولا رب يعبدونه، ومن سمع هذه المقالة القبيحة تعين عليه إنكارها بلسانه، بل يب عليه منع قائلها بالضرب إن لم ينزجر باللسان، فإن عجز عن الإنكار بلسانه والضرب بيده؛ وجب عليه إنكار ذلك بقلبه، وذلك من أضعف الإيمان، ورحم الله تعالى من نظر هذه النسخة وأظهرها عند من سمع هذه المقالة الفاسدة التى ضررها على القلوب والأديان عائدة، عصمنا الله تعالى برحمته من مضلات الفتن، وجعلنا ممن تمسك بالكتاب، واتبع أحكامه بالسنن.

ولا شك فى كون «هذه الكلمات المذكورة المنكورة، وكل كلمة منها هى الكفر الذى لا نزاع فيه بين أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، فضلا عن أن يكون في شريعة الإسلام.

فماذا يقول علماء الزمان فى قول القائل فى كل وقت وأن الإنسان: «للحق بمنزل (إنسان العين من العين) الذى يكون به النظر».

يقتضى أن آدم جزء من الحق تعالى وتقدس وبعض منه، وأنه أفضل أجزائه وأبعاضه؛ وهذا هو حقيقة مذهب هؤلاء القوم، وهو معروف من أقوالهم.

والكلمة الثانية توافق ذلك، وهو قوله: «إن الحق المنزه هو الخلق المشبهة»؛ ولهذا قال فى تمام ذلك: «فالأمر الخالق المخلوق، والأمر المخلوق الخالق. كل ذلك من عين واحدة، لا، بل هو العين الواحدة، وهو العيون الكثيرة ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾،

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾[(١)]، فالولد عين أبيه، فما رأى يذبح سوى نفسه، ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[(٢)].

فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان، وظهر بصورة ولد؛ لا، بل بحكم ولد من هو عين الوالد، ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾[(٣)] فما نكح سوى نفسه».

وقال فى موضع: «وهو الباطن على كل فهم إلا على فهم من قال: إن العالم صورته وهيئته».

وقال: «من أسمائه الحسنى العلى. على من وما ثم إلا هو؟ فهو العلى لذاته. أو عن ماذ، وما هو إلا هو؟ فعلوه لنفسه. وهو من حيث الوجود عين الموجودات. فالمسمى محدثات هى العلية لذاتها، وليست إلا هو».

إلى أن قال: «فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن فى حال ظهوره. وما ثم من يراه غيره، وما ثم من يبطن عنه؛ سواه، وهو ظاهر لنفسه باطن عنه، وهو المسمى أبو سعيد الخراز، وغير ذلك من أسماء المحدثات».

إلى أن قال: «فالعلى لنفسه هو الذى يكون له الكمال يستغرق به جميع الأمور الوجدانية والنسب العدمية سواء كانت محمودة عرفًا وعقلًا وشرعًا، أو مذمومة عرفًا وعقلًا وشرعًا، وليس ذلك إلا لمسمى الله تعالى خاصة».

---

(١) سورة الصافات: آية ١٠٣ .

(٢) سورة الصافات: آية ١٠٧ .

(٣) سورة النساء: آية ١ .

وقال: «ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص، وبصفات الذم؟ ألا ترى أن المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها، وكلها حق له كما هى صفات المحدثات حق للحق».

وأمثال هذا الكلام على مذهب من قال إن الوجود واحد يسمون أهل وحدة الوجود، ويدعون التحقيق والعرفان، وهم يجعلون وجود الخالق عين المخلوقات؛ فكلما يتصف به المخلوقات من حسن وقبح وذم، إنما المتصف به عندهم عين الخالق، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات منفصل عنها أصلًا؛ بل عندهم ما تمة غير أصلًا لا للخالق ولا سواه، فعباد الأصنام لم يعبدوا غيره عندهم؛ لأنه ما عندهم له غير؛ ولهذا جعلوا قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1].

بمعنى قدر ألا تعبدوا إلا إياه؛ إذ ليس عندهم غير له يتصور عبادته، وكل عابد صن إنما عبد الله تعالى ولهذا قال من قال: إن عباد العجل مصيبون، وقال: إن موسى أنكر على هارون إنكاره عليهم عبادة العجل.

وقال: «كان موسى أعلم بالأمر من هارون؛ لأنه علم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه أن الله تعالى قد قضى ألا تعبدوا إلا إياه، وما حكم الله تعالى بشيء إلا وقع، فكان عتاب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر فى إنكاره وعدم اتباعه، فإن العارف من يرى الحق فى كل شيء، بل يراه عين كل شيء».

---

(١) سورة الإسراء: آية ٢٣ .

ولهذا يجعلون فرعون من العارفين المحققين، وأنه كان مصيبًا في ادعاءه الربوبية: «ولما كان في منصب التحكم صاحب الوقت وإن جار في العرف الناموسي؛ لذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(١)].

أي وإن كان الكل أربابًا نسبة ما، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من التحكم فيكم، ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قال لم ينكروه، بل اقروا له بذلك، وقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[(٢)].

فالدولة لك، فصح قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(٣)]، وإن كان غير الحق».

«ومن أخفّ أقوالهم: أنّ فرعون مات مؤمنًا بريئًا من الذّنوب، كما قال: وكان موسى قرّة عين فرعون بالإيمان الّذي أعطاه الله تعالى عند الغرق، فقبضه طاهرًا مطهرًا ليس فيه شيء من الخبث قبل أن كتب عليه شيئًا من الآثام، «والإسلام يجب ما قبله».

وقد عُلِمَ بالاضطرار من دين أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى أنّ فرعون من أكفر الخلْق بالله تعالى، بل لم (يَقُصَّ) الله تعالى في القرآن قصّة كافر باسمه الخاص أعظم من قصّة فرعون، ولا ذكر عن أحد من الكفّار من كفره وطغيانه وعلوّه أعظم ممّا ذكر عن فرعون، وأخبر عنه وعن قومه أنّهم يدخلون ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[(٤)].

---

(١) سورة النازعات: آية ٢٤ .

(٢) سورة طه: آية ٧٣ .

(٣) سورة النازعات: آية ٢٤ .

(٤) سورة غافر: آية ٤٦ .

فإنَّ لفظ آل فرعون كلفظ آل لوط يدخل فيه المصناف باتّفاق النّاس، فإذا جاءوا إلى أعظم عدوّ لله تعالى من الإنس أو من هو من أعظم أعدائه فجلعوه محقًّا فيما كفر، عُلِمَ أنَّ ما قال أعظم مّما قال الكفار فكيف بسائر مقالاتهم.

وقد اتّفق سلف الأمة وأئمّتها على أنَّ الخالق بائنٌ من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، والسَّلف والأئمة كفَّروا الجهميّة لما قالوا إنّه في كلّ مكان.

وكان مّما أنكروه عليهم أنَّهُ كيف يكون في البطون والحشوش والأخلية والنّجاسات والأقذار. واتّفق سلف الأمّة وأئمّتها أنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وقال من قال من الأئمة: «من شبه الله تعالى بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله تعالى به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله تعالى به نفسه ولا رسوله تشبيهًا». وأين المشّبهة المجسّمة من هؤلاء؟.

فإنَّ أولئك غاية كفرهم أن يجعلوه مثل المخلوقات، لكن يقولون هو قديم وهى محدثة، وهؤلاء جعلوه عين المحدثات، وجعلوه نفس الأجسام المصنوعات.

ووصفوه بجميع النقائص والآفات التى يوصف بها كل كافر، وكل فاجر، وكل شيطان، وسبع وحية من الحيات، فتعالى الله عن إفكهم وضلالهم، والله تعالى ينتقم لنفسه ولدينه ولكتابه ولرسوله ولعباده المؤمنين منهم.

وهؤلاء يقولون: إن النصارى إنما كفروا لتخصيصهم؛ حيث

قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

فكل ما قالته النصارى فى المسيح يقولون فى الله، ومعلوم شتم النصارى لله وكفره به.

وقد قال قائل منهم: «القرآن كله شرك، وإنما التوحيد فى كلامنا». يعنى أن القرآن يفرق بين الرب والعبد، وحقيقة التوحيد عندهم: أن الرب هو العبد، فقال لهم قائل: فأى الفرق بين زوجتى وبنتى؟

إذًا قالوا: لا فرق، لكن هؤلاء المحجبون قالوا: حرام، فكنا حرام علكيم.

وهؤلاء إذا قيل فى مقالتهم أنها كفر لم يفهم هذا اللفظ حالها؛ فإن الجنس تحته أنواع متفاوتة، بل كفر كل كافر جزء من كفرهم، ولهذا قيل لرئيسهم: أنت نصيرى؟ فقال: نصيرى جزء منى.

وكان عبد الله بن المبارك يقول: «إنا لنحكى كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية».

وهؤلاء شر من أولئك الجهمية؛ فإن أولئك غايتهم القول بأن الله تعالى فى كل مكان، وهؤلاء قولهم إنه وجود كل مكان، ما عندهم موجودان أن أحدهما خالق والآخر مخلوق، وقد علم المسلمون واليهود والنصارى بالاضطراب من دين المرسلين أن من قال على أحد من البشر أنه جزء من الله تعالى فإنه كافر فى جميع الملل.

---

(١) سورة المائدة: آية ٧٢ .

إذ النصارى واليهود لم تقل هذا، ولم يقل أحد أن عين المخلوقات هى أجزاء الخالق، ولا أن الخالق هو المخلوق، ولا الحق المنزه هو الخلق المشبه، ولا أن المشركين لو تركوا عبادة الأصنام لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا منها، هو من الكفر المعلوم بالاضطرار من جيمع الملل.

فإن أهل الملل متفقون على أن الرسل جميعًا نهوا عن عبادة الأصنام وكفروا من يفعل ذلك، وأن المؤمنين لا يكونوا مؤمنين حتى يتبرؤا من عبادة الأصنام، وكل معبود سوى الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[(١)].

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)]، وقال الخليل لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾[(٣)].

وقال الخيلي -إمام الحنفاء الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب، واتفق أهلل الملل على تعظيمه- لقومه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ لا إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الممتحنة: آية ٤ .

(٢) سورة الشعراء: الآيات ٧٥-٧٧ .

(٣) سورة الزخرف: الآيتان ٢٦-٢٧ .

(٤) سورة الأنعام: الآيتان ٧٩-٨٠ .

وهذا الذى قالوا من أكفر الكفر عند الملل من اليهود والنصارى فضلًا عن المسلمين أن يحتاج أن يشهد عليه بنص آخر؛ فإن اليهود والنصارى يكفرون عباد الأصنام، فيكف من يجعل تارك عبادة الأصنام جاهلًا من الحق بقدر ما ترك منها مع قوله: «إن العالم يعلم من عبدوا فى أى صورة ظهر حتى عبد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية فى الصور الروحانية، فما عبد غير الله فى كل معبود».

بل هو أعظم من كفر عبادة الأصنام؛ فإن أولئك اتخذوهم شفعاء ووسايط كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]، وقال الله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

وكانوا يقرون بالله خالق السموات والأرض وخالق الأصنام، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[3]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[4].

قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: «يسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله، ثم يعبدون غيره»[5].

---

(١) سورة الزمر: آية ٣ .

(٢) سورة الزمر: آية ٤٣ .

(٣) سورة لقمان: آية ٢٥ .

(٤) سورة يوسف: آية ١٠٦ .

(٥) رواه ابن جرير تفسير الطبرى ٧/ ٣١٢ .

وكانوا يقولون فى تلابيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك[١]. ولهذا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[٢].

وهؤلاء أعظم؛ من جهة أن هؤلاء جعلوا عابد الأصنام عابدًا لله تعالى لا عابدًا لغيره، والأصنام من الله تعالى بمنزلة أعضاء الإنسان من الإنسان، وبمنزلة قوى النفس من النفس، وعباد الأصنام اعترفوا بأنها غيره، وأنها مخلوقة، ومن جهة أن عباد الأصنام من العرب كانوا يقرون بأن للسموات والأرض خالقًا غيرها خلقها؛ لكنهم عبدوا الأصنام ليقربوا إليه زلفى من غير سلطان لهم، وهؤلاء ليس عندهم للسموات والأرض وسائر المخلوقات رب مغاير للسموات والأرض وسائر المخلوقات، بل المخلوق هو الخالق.

ولهذا جعلوا قوم عاد وغيرهم من الكفار على صراط مستقيم، وجعلوهم فى عين القلوب، وجعلوا أهل النار يتنعمون فى النار كما يتنعم أهل الجنة فى الجنة. وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن عادا قوم هود، وثمود، وفرعون وقومه، وسائر من قص الله تعالى قصته من الكفار أعداء الله تعالى، وأنهم معذبون فى الآخرة، وأنه لعنهم وغضب عليهم، فمن أثنى عليهم وجعلهم من المقربين ومن أهل النعيم فهو ألحد من كل ملحد يكذب بكل كتاب أنزله الله تعالى، ونبى أرسله الله تعالى.

---

(١) انظر صحيح مسلم، كتاب الحج، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة، وما لا يباح.

(٢) سورة الروم: آية ٢٨ .

فإنه من جنس القرامطة الباطنية الإسماعيلية الذين كانوا أكفر من اليهود والنصارى، فإ قولهم يتضمن الكفر بجميع الكتب والرسل، وهو يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجا، ويقول: إن العالم هو الله تعالى، العالم صورة الله تعالى، وهدية الله؛ فهذا أعظم من كفر القائلين بقدم العالم الذين يثبتون واجب الوجود.

ويقولون إنه صدر عنه الوجود الممكن، ولا سمعوا من كلام ابن سبعين، والقنوى والتلمسانى وأمثالهم، فكيف أذكر ما يذكرونه، لكن التبس أمرهم على من لم يعرف حالهم كما التبس أمر القراطمة الباطنية لما ادعوا أنهم فاطميون وانتسبوا إلى التشيع فصاروا يبطنون كفرهم.

وكذا هؤلاء الاتحادية؛ فإنهم من أعظم الزنادقة الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر؛ لا تقبل توبتهم إذا أخذوا قبل التوبة، فإن القيام عليهم من أعظم الواجبات؛ لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء، وهم يسعون فى الأرض فسادًا، ويصدون عن سبيل الله، فضررهم فى الدين أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم، ويترك دينهم لقطاع الطريق، وإضلالهم أعظم من أن يوصف.

وهم أشبه الناس بالقراطمة الباطنية، من كان عاميًا من شيعتهم وأتباعهم، فإنه لا يعرف بحقيقة أمرهم، ومن قال لكلامهم تأويلا موافقًا للشريعة فإنه من رؤوسه وأئمتهم فإنه إن كان ذكيًا يعرف كذب نفسه فيما قال فليتأمل».

فيجب تكفير هؤلاء على كل مؤمن (من أهل العلم). انظر إلى

قبح قول من قال فى حقِ قوم من أهل العلم أنهم «وقفوا على سر القدر، وهم على قسمين:

منهم من يعلم ذلك إجمالًا.

ومنهم من يعلم مفصلًا، والذى يعلمه مفصلًا أعلى وأتم من الذى يعلمه مجملًا، فإنه يعلم ما فى علم الله تعالى فيه، إما بإعلام الله إياه مما أعطاه عينه من العلم به، وإما بأن يكشف له عينه الثابتة، وانتقالات الأحوال عليها إلى ما يتناهى، فهو أعلى، فإنه يكون فى علمه بنفسه بمنزلة علم الله تعالى به.

لأن الأخذ من معدن واحد» أفهم قصده المفسود واجتراءه على الرب المعبود حتى ساوى بينه وبين عبد من عبيده فى العلم بعواقب الأمور إلى ما لا نهاية له، ثم إنه قال: فساق الكلام -حتى قال-: «ولهذا قال: «شيبتنى هود وأخواتها» لما تحوى عليه من قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[1].

فإنه لا يدرى هل أمر بما يوافق الإرادة فيقع له، أو بما يخالف الإرادة فلا يقع». انظر: إلى هذا الكلام المنكور والفساد الظاهر عند كل ذى فهم ونور، وهو إن كان ما قرره من وقوف بعض أهل العلم على سر القدر فيه حتى يكون فى علمه بنفسه بمنزلة علم الله تعالى به، وأنه يعلم انتقالات الأحوال إلى ما لا يتناهى؛ تفنى دونه الآماد الدنيوية ويتسرمد فى الآباد الأخروية.

فإن كان ذلك جائزًا فى حق غير النبى ﷺ كما زعم، فمنعه بعض

---

(١) سورة هود: آية ١١٢ .

ذلك فى حق النبى ﷺ من ألعظم الافتراء والاجتراء والنقص، فإن المدة التى أمر النبى ﷺ فيها بالاستقامة بالنسبة إلى ما لا يتناهى كطرفة عين أو أدنى من ذلك بالنسبة إلى الآماد واستقرار الآباد، فقد استخف عقول الناس، وأطلق لسانه بما لا يقبله عقل ولا نقل ولا قياس.

فعليه من الله تعالى ما يستحقه من أعظم فجوره وفسقه، والاختصار فيما يطول شرحه أجمل، فإن آخر كلامه وإن طال الشرح هو فى المعنى كالأول: إما إلحاد أو تنقيص الرسل ورد ما جاءت به عن رب العباد، فمن قبل كلامه المفسود خسر إذا لم يفهم مراده، ومن فهم مراده وصدقه فقد كفر»، فالسكوت لا يحل للعلماء والحكام، والسلام على كل لبيب فهام.

وانظر إلى ما قال: «إنما سمى الخليل خليلًا لتخلله وحصره جميع ما اتصفت به الذات الإلهية» فساق فى بسيط كلامه فى تقرير ذلك وإثباته لإبراهيم ﷺ، ثم نسى حكم ما قرره فى حقه حتى قال بعد ذلك عن إبراهيم ﷺ: إنه صدق الرويا «ولو صدق فى الرؤيا لذبح ابنه»، ثم إنه ساق الكلام إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[1]:

«أى الظاهر، يعنى الاختيار فى العلم، هل يعلم ما يقتضيه موطن الرؤيا من التعبير أم لا؟؛ لأنه يعلم أنه موطن الخيال يطلب التعبير، فغفل فما وفى الموطن حقه، وصدق الرؤيا؛ لهذا السبب». انظر كيف أكثر جرأته على الله تعالى وعلى رسله الكرام، وكلامه على

---

(١) سورة الصافات: آية ١٠٦ .

خصوصياتهم بالأوهام، حتى جعل الخليل ﷺ أنه ما وفى، والله تعالى قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[1].

ثم جعله غافلًا لا يعلم تعبير المنام، ونسى حكم ما ادعاه فيه من كمال رتبة الخلفة ما ذكرها وبينها وقررها فى الكلام؛ إذ قال: «إنما سمى الخليل خليلًا لتخلله وحصره جميع ما اتصفت به الذات الإلهية».

ثم يقول بعد ذلك فى حقه مثل ذلك القول ويعوزه علمًا كان لبعض هذه الأمة المحمدية مثل ابن سيرين وغيره من المعبرين المشهوري. فانظر إلى هذا الفساد، وسوء التصور والاعتقاد، استخف عقول الناس فقال، وأطلق لسانه بكل زور ومحال.

وأمثال هذه كثيرة فى كلامه بلا حساب مما يخالف السنة والكتاب، يقف عليه كل اللبيب المتبصر الأريب، فنذكر من أقوال أئمة الحنفية المتقدمين من العلماء الأقدمين مما يرد أقوال الملحدين، ثم نذكر أحاديث سيد المرسلين التى بها يحفظ الدين، ويوجب الاحتراز عن بدع المبتدعين، ليكون عالميها على البصيرة واليقين، ويتمسكوا بحبل الله المتين، وبالله التوفيق.

* «قال الشيخ الإمام العلامة أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى الحنفى فى عقيدته المشهورة: إن الله تعالى ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئًا لم يكن من صفته، وكما كان بصفاته أزلياء، كذلك لا يزال عليها أبديًا، ليس منذ خلق الخلق

(١) سورة النجم: آية ٣٧ .

استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارى، له معنى الربوبية ولا مربوب.

ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيى الموتى بعدما أحيا، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، وكذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم، ذلك إنه كل شىء قدير، وكل شىء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شىء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] فهذا فصل من عقيدته، تتضمن معانيها ومفهوم ألفاظها ضد أقوال هؤلاء المذكورين.

ثم قال فيها: «من وصف الله تعالى بمعنى من معانى البشر فقد كفر». فكيف من قال: «إن الحق المنزه هو الخلق المشبه»، وقوله: «إن العالم صورته وهويته» وغير ذلك من الأقوال القبيحة المتقدمة.

ثم الطحاوى فى العقيدة المذكورة قال: «إن من رد حكم كتاب الله تعالى فهو من الكافرين».

وهم قد ردوا من حكم حكم الله تعالى به، وبينه رسوله ﷺ من أصول الشرائع التى لا تنقض ولا تنسخ، ككفر عباد الأصنام، وضلال مخالفى الرسول؛ وأنهم بمخالفتهم؛ أعداء الله تعالى، وأنهم من أهل النار، ولهم فيها الخزى والعذاب الشديد السرمدى.

وقال المذكور: هما واحد؛ يعنى الجنة والنار فى الذوق، وإنما تغير فى اللون، هذا خضراء، وتلك سوداء أو حمراء، وأن الطائع

---

(١) سورة الشورى: آية ١١ .

والعاصى والمؤمن والكافر والكل مرضيون مستحقون الوعد، وما ثمة وعيد أصلا.

وقد قال الطحاوى فى عقيدته المذكورة أن: «الأمن واليأس ينقلان عن الملة»، وأن اعتقاد عدم حكم الوعيد فى حق من حقت عليه كلمة العذاب غاية الأمن ونهاية الكفر. عصمنا الله تعالى من ذلك بفضله إنه على كل شىء قدير.

ثم نذكر بعد ذلك ما ذكره الأوسى من أصحاب الإمام الأعظم أبى حنيفة فى تصنيف له فى الأصول. قال فى قصيدة له بيتًا من الشعر، وشرح بعده ألفاظًا كثيرة ذكر أنه يكفر بها قائلها ومن رضى بها من قائلها، فقال:

ولفظ الكفر من غير اعتقاد　　　بطوع رد دين باغتفال

فكان مما شرحه: أن من تلك بكلمة الكفر فضحك غيره كفر، أو استحسنه كفر.

ومن وصف الله تعالى بما لا يليق به كفر.

ومن عاب نبيًا من الأنبياء كفر، أو صغر اسم نبى من الأنبياء كفر.

أو لم يرض بسنته كفر.

ومن أنكر وعده أو وعيده كفر.

ومن قال: الله فى ست جهات كفر، أو قال: يوجد فى كل مكان كفر.

أو قال: كان النبى ﷺ يحب القرع والخل فقال: أنا لا أحبه فإنه يكفر.

ومن سخر بالشريعة أو بحكم من أحكامها فقد كفر.

ومن قال: إن الخمر لم يثبت حرمته بالقرآن كفر.

أو صدق كلام أهل الأهواء، أو قال: كلام معنوى، أو قال: كلام له معنى صحيح فإنه يكفر.

ومن قال: من يعرف أن الله تعالى يرحم الكافر والشيطان وأهل الأهواء فإنه يكفر، فكيف من اعتقد ذلك فى قوم نوح، وقوم هود، وفرعون، وجعل كل كافر وفاجر وفاسق وعاهر عند ربه مرضيا -كما تقدم قوله- فعليه ما يستحق إن كان مات على اعتقاد ما وضعه فى كتابه.

ونذكر ما ذكر القاضى عياض فى كتاب الشفاء، قال: «اعلم وفقنا الله تعالى وإياكم أن جميع من سب النبى ﷺ، أو عابه، أو ألحق به نقصانًا فى نفسه أو نسبه أو دينه، أو خلصة من خصاله، أو عرض به، أو شبهه بشىء على طريق السب له والإزدراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه والعيب له؛ فهو ساب له، والحكم فيه؛ حكم الساب؛ يقتل كما بينته، ولا يستثنى فصلًا من فصول هذا الباب على هذا المقصد، ولا نمترى فيه، تصريحًا كان أو تلويحًا.

وذكر فى كتابه عن ابن عتاب قال: «الكتاب والسنة موجبان أن من قصد النبى ﷺ بأذى أو نقص -معرضًا أو مصرحًا، وإن قل- فقتله واجب».

انظر ما ذكر من كلام هؤلاء الذكورين من تنقيصه المرسلين والأنبياء تصريحًا لا تلويحًا، وهو فى كلامه ومضاره كثير بين بلاغيم.

فمعلوم عند اجتماع المسلمين من المتقدمين والمتأخرين واليهود والنصارى والصابئين أن من عبد الأصنام ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله تعالى.

* «وقال جعفر بن أحمد: «لا يعظم حرمات الله تعالى إلا من عظم الله تعالى، ولا يعظم الله تعالى إلا من عرف الله تعالى، ومن عرف الله تعالى خضع له وانقاد فى خضوعه، وخضوعه يتولد من تعظيمه لربه، فإذا عظم ربه؛ صغر كل ما سواه، ويتولد من ذلك؛ تعظيم حرمات المؤمنين، وذلك لتعظيم حرمات الله تعالى فى قلبه، بأن يعظم كل من يعطيه ويعرف».

وقال أبو بكر الشبلى: «الأرواح تلطفت فتعلقت عند لدغات الحقيقة، فلم تر غير الحق معبودًا يستحق العبادة، وأيقنت أن المحدث لا يدرك القديم بصفات معلولة، وإذا صفاه الحق؛ أوصله إليه، فيكون الحق أوصله، لا هو وصل».

وقال: «ليس يخطر الكون ببالى، وكيف يخطر الكون ببال من عرف الكون».

وقال بعض أصحابه: «رأيت الشبلى فى المنام فقلت له: يا أبا بكر! من أسعد أصحابك بصحبتك؟

قال: أعظمهم تعظيمًا لحرمات الله، وألهجهم بذكر الله، وأقومهم بحقه، وأسرعهم مبادرة فى مرضاته، وأعرفهم بنقصان نفسه، وأعظمهم تعظيمًا لما عظمه الله تعالى من حرمة عباده».

وقال: «رفع الله تعالى قدر الوسائط بعلو هممهم، فلو كشف على الأولياء ذرة مما كشف للأنبياء لبطلوا ولتقطعوا».

وقال أبو على الروذبارى: «قد سئل عمن يسمع الملاهى ويقول: هى حلال؛ لأنى وصلت إلى درجة لا يؤثر فى اختلاف الأحوال؟ فقال: وصل لعمرى، ولكن إلى سقر».

وقال أبو على بن عبد الوهاب الثقفى: «الفروع الصحيحة لا تتفرع إلا من أصل صحيح، فمن أراد أن تصح له أعماله على السنة فليصحح الإخلاص فى قلبه؛ فإن تصحيح ظواهر الأعمال بصحة بواطن الإخلاص».

وقال أبو الحسين بن بنان المصرى: «لا يعظم أقدار الأولياء إلا من كان عظيم القدر عند الله».

وقال أبو الحسين: «المتمسك بكتاب الله تعالى لا يخفى عليه شىء من أمر دينه ودنياه، بل يجري فى أوقاته على المشاهدة لا على الغفلة يأخذ الأشياء من القلوب، وقلوب الأولياء أوعية المعرفة، وقلوب العارفين أوعية المحبة.

وقلوب المحبين أوعية الشوق، وقلوب المشتاقين أوعية الأنس، ولكل حال فى هذه الأحوال آداب من لم يستعملها فى أوقاتها هلك من حيث يرجو النجاة».

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم: «إن الله تعالى دعا الخلق إلى توحيده والإيمان به؛ تصديقًا وتحقيقًا باللسان، ومباشرة الأعمال بالجوارح، وهذا هو الإيمان».

وقال أبو إسحاق: «القيام بآداب العلم وشرائعه مبلغ بصاحبه إلى مقام الزيادة والقبول».

وقال أبو عمرو: وكان الناس فى الجاهلية يتبعون ما يستحسنه عقولهم وطبائعهم فجاء النبى ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع، فالفعل الصحيح الذى من (استحسن ما) استحسنه محاسن الشريعة، يستقبح ما استقبحه».

ونختم كلام هؤلاء السادة من أئمة أهل التحقيق بكلام الفضيل بن عياض إذ قرأ عند قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

قال: أخلصه وأصوبه، قال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا، والخالص أن يكون لله تعالى، والصواب أن يكون على السنة».

وهذا ما اقتصرت عليه من كلام أهل التحقيق، وافتتحته بكلام وارث علم النبى ﷺ، وختمته بكلام هذا السيد المحقق الذى ما اختلف فى فضله اثنان.

وهؤلاء المذكورون نيف وأربعون رجلًا، كلامهم واحد لمن يعتبره وإن اختلفت العبارات، فمفهومها كله دلالة واحدة على الحق الذى جاء به النبى ﷺ، وعلى أصل واحد مما جاءت به الرسل الكرام؛ من توحيد الله تعالى، وتعظيم رسله وشرائعه، والإيمان بكتبه، وإثبات ما أثبتوه، وإنكار ما أنكروه، فمتى قبل قلب المؤمن

(١) سورة هود: آية ٧، سورة الملك: آية ٢ .

شيئًا مما يضاد ذلك رق فى الدين وهو لا يشعر، ومن سمعه ولم يقبله ولم ينكره آثم.

فلذلك بسطت الكلام فى ذلك؛ تحذيرًا من سماع ما يخالف الكتاب والسنة والإصغاء إليه، أو التسليم له، فإنه قد ورد فى صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمانى قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين؛ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه»[1].

فقد عرفنا رسول الله ﷺ وبين لنا أن القلب متى قبل فتنة الباطل أنكت فيه نكتة سوداء؛ أنه ربما (غفل عن) التوبة والإنابة إلى الحق فيسرى السواد، وينمو حتى يسود القلب جميعه، حتى لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، صدق رسول الله ﷺ.

واذكر الأحاديث الموعودة:

أبو عبيدة: «لتركبن سنن من قبلكم وأحوالهم» فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[2].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام «بدأ غريبًا» وسيعود غريبًا ٢/ ٢٢٥، وأحمد ٥/ ٣٨٦ .

(٢) سورة الإنشقاق: آية ١٩ .

قال النبى ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم، قيل: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال ﷺ: فمن».

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. عكرمة: «كل عشرين عامًا يحدثون أمرًا لم يكونوا عليه»[2].

وقال ﷺ: «يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون؛ يأتونكم من الأحاديث ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم؛ لا يضلونكم ولا يفتنونكم» رواه أبو هريرة[3].

وقال ﷺ فيه أيضًا: «ليأتين على أمتى كما أتى على بنى إسرائيل؛ حذو النعل بالنعل، حتى إن منهم من أتى أمه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك، وإن بنى إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين ملة، كلهم فى النار إلا واحدة. قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى».

صدق رسول الله ﷺ، فما النجاة إلا فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[4].

---

(١) سورة الإنشقاق: آية ٢٠ .

(٢) سبق تخريجه ١٧٦ .

(٣) رواه مسلم فى مقدمة صحيحه من حديث أبي هريرة ١/١١٦ .

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ١٠٢-١٠٣ .

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وقال النبى ﷺ: «ليأتين على الناس زمان لا يبالى المرء بما أخذ المال، بحلال أو بحرام»[٢].

وعن عمر رضي الله عنه: والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لقد سمعت النبى ﷺ يقول: «سيأتى على الناس زمان يصلى فى المسجد ألف منهم وزيادة لا يكون فيهم مؤمن»[٣]. صدق رسول الله ﷺ، فإذا كان حال المصلين ذلك فما ظنك فى غيرهم.

وقال النبى ﷺ: «ما من نبى بعثه الله تعالى فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب؛ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» صدق رسول الله ﷺ رواه مسلم فى صحيحه[٤].

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٣ .

(٢) رواه البخارى كتاب البيوع، باب من لم يبال من حيث كسب المال.

(٣) أورده هذا الأثر الديلمى فى الفردوس بمأثور الخطاب عن ابن عمر، ولم يرفعه إلى النبى ﷺ، انظر : ٢/ ٣١٩ .

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، انظر صحيح مسلم بشرح النووى ٢/ ٣٤ .

والمبتدعون المخالفون كتاب الله يتبعون المتشابه منه كثير فى هذا الزمان كما قالت عائشة -رضى الله عنها-: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[١] الخ، قالت: قال النبى ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه فأولئك الذين سمى الله تعالى، فاحذروهم»[٢].

وقال النبى ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى». رواه زيد[٣].

وعن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود والنصارى تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال النبى ﷺ: «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا ابتاعى»[٤].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «بادروا بالأعمال الصالحة، فإنكم سترون فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مومنا ويسمى كافرا، ويسمى مؤمنا ويصبح كافرًا؛ يبيع ينه بعرض الدنيا» رواه مسلم[٥]، فقد كثر فى هذا الزمان من كذب المبطلين، وتأويل

---

(١) سورة آل عمران: آية ٧ .

(٢) رواه البخارى، كتاب التفسير، باب منه آيات محكمات.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووى ٢/ ٦٥ .

(٤) رواه أحمد فى المسند ٣/ ٣٣٨، والبيهقى فى شعب الإيمان١/ ٢٠٠ .

(٥) انظر: صحيح مسلم بشرح النووى ١/ ١٧٤. ورواه الترمذى أيضًا بلفظ مسلم ٤/ ٤٢٢ .

الجاهلين، فلا بد من الحذر، وقد قال النبى ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال النبى ﷺ: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(٢).

وقال النبى ﷺ: «الأمر ثلاثة؛ أمر بيين رشده فاتبعوه، وأمر بين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف فيه فكلوه إلى الله تعالى»(٣).

وقال النبى ﷺ: «نزل القرآن على خمسة وجوه؛ حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فاحلوا الحلال، وحرموا الحرام، واعملوا بالمحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال»(٤).

وقد علم مما ذكر أن مبنى هذا الدين على اليسر لا العسر، فلا بد من الاقتصاد فى الأمور كلها، كما قال ﷺ؛ عن عائشة -رضى الله عنها- قال النبى ﷺ: «ما بال أقوام يتنزهون عن شىء أصنعه؟! فو الله إنى لأعلمهم بالله تعالى، وأشدهم له خشية»(٥).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان يقول: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد

---

(١) رواه ابن حبان فى الثقات.

(٢) رواه الحاكم ٤/ ٥٢٢، ورواه أبو داود ٤/ ١٠٦

(٣) رواه عبد بن حميد فى مسنده ١/ ٢٢٥ .

(٤) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ٢/ ٤٢٧ .

(٥) رواه البخارى، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ١٠/ ٥٢٩، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووى ١٥/ ١٥٥ .

عليهم، بقاياهم فى الصوامع والديار؛ رهبانية ابتدعوها»[١].

عن عمر رضي الله عنه قال: «تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها، كونوا على دين الأعراب والغلمان والكتاب»[٢].

وعن على رضي الله عنه قال: «تركتم على الجادة منهج عليه أم الكتاب».

وقال النبى ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة»[٣].

وفى أخرى: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه»[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» رواه البخارى ومسلم[٥].

عن عائشة -رضى الله عنها- قالت: دخل النبى ﷺ وعندى امرأة من أسد، فقال ﷺ: «من هذه؟ فقل: فلانة؛ لا تنام الليل، فقال النبى ﷺ: مه؛ عليكم من الأعمال ما تطيقونه؛ فإن الله تعالى لا يمل حتى

---

(١) رواه أبو داود ٤/ ٢٧٨ .

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفاء ٢/ ٩٢ .

(٣) رواه البخارى من حديث عائشة -رضى الله عنها-، كتاب الرفاق، باب القصد والمداومة على العمل. انظر فتح البارى ١١/ ٣٠٠ .

(٤) رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، انظر: فتح البارى ٧/ ٦٥٧ .

(٥) رواه البخارى، كتاب المغازى، انظر: فتح البارى ٧/ ٦٥٧ .

تملوا» رواه البخارى، ومسلم والطبرانى، والنسائى[١].

فالاقتصاد أمر عظيم؛ فلا بد منه؛ فإن منشأ المبتدعين؛ تشقيق الكلام فى ذات الله وصفاته، والتكلف فى الكلام وراء الحاجة، وقد قال النبى ﷺ: «إن من البيان لسحرا»[٢].

يعنى: «أن بعض البيان يعمل عمل السحر، ومعنى السحر: إظهار الباطل فى صورة الحق والبيان واجتماع الفصاحة والبلاغة وزكاء القلب مع اللبس، وإنما شبه بالسحر لحدة عمله فى سامعه، وسرعة قبول القلب له» كذا ذكره فى مجمع الأمثال.

وفى محيى السنة أنه ﷺ: «ذم التصنع فى الكلام، والتكلف لتحسينه؛ ليروق للسامعين، ويستميل قلوبهم. وأصل السِّحر فى كلامهم؛ الصرف، وإنما سمى السحر سحرًا؛ لأنه مصروف عن جهته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[٣] أى تصرفون عن الحق»[٤].

فهذا الرجل المتكلم ببيانه يصرف قلوب السامعين إلى قبول قوله، وإلى غير الحق كما قال النبى ﷺ: «من تعلم صرف الكلام؛ ليسبى به قلوب الرجال أو الناس؛ لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا

---

(١) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه. انظر فتح البارى: ١/ ١٢٤ .

(٢) رواه البخارى، كتاب الحج، باب الخطبة من حديث عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- ٩/ ١٠٩ .

(٣) سورة المؤمنون: آية ٨٩ .

(٤) شرح السنة ١٢/ ٣٦٣ .

عدلًا»[١]. صدق رسول الله ﷺ.

وفى جامع الفتاوى: يحصل من البيان ما يحصل من السحر من الإثم، وتشقيق الكلام من الشيطان، وضرر ذلك وفساده أكثر من نفعه، ولا يرغب ولا يراط عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى غيرهما من كتب الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبور، وغير ذلك.

وفى البزازية: لا ينبغى للرجل أن يسأل اليهود والنصارى عن التوراة والإنجيل والزبور، ولا يكتبه ويعلمه؛ لأنهم حرفوه، ولا يستدل لإثبات المطالب بما ذكر فى تلك الكتب؛ لأنه يحتمل أن يكون من المحرف، وفى الحديث: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، ولا يزيغ بعدها إلى غيرها إلا الهالك»[٢].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لما دنى وفاة النبى ﷺ؛ جمعنا فى بيت أمنا عائشة -رضى الله عنها- ثم نظر إلينا، قد دمعت عيناه، وقال: «مرحبًا بكم، حياكم الله تعالى، رحمكم الله، أوصيكم بتقوى الله تعالى وطاعته، قد دنا الفراق، وحان المنقلب إلى الله تعالى، وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى، يغسلنى أهل بيتى ويكفنونى فى ثيابى هذا فى حلة يمانية، فإذا غسلتمونى وكفنتمونى؛ ضعونى على سريرى فى بيتى هذا، ثم اخرجوا عنى ساعة، فأول من يصلى على جبرائيل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل ثم ملك الموت، ثم جنوده، ثم ادخلوا على فصلووا على، فلما سمعوا فراقه؛ صاحوا وبكوا،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ٤/٣٠٣.

(٢) رواه ابن أبى عاصم بنحوه.

فقالوا: يا رسول الله! أنت رسول الله ربنا، وجامع شملنا وسلطان أمرنا إذا ذهبت عنا فإلي من نراجع أمورنا؟.

قال النبى ﷺ: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، وتركت لكم واعظين؛ ناطقًا وصامتًا، والناطق القرآن، والصامت الموت، فإذا أشكل عليم أمر فارجعوا إلى القرآن والسنة، وإذا قست قلوبكم فلينوها بالاعتبار»[١].

وهذا وصية سيدنا محمد ﷺ على سبيل الاقتصاد الذى به النجاة عن طرفى الإفراط والتفريط. وأنا الفقير أذكر فيه الأصل الذى ذكره فى كتب الأصول وبه التوفيق.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٢]، والوساطة: العدالة، ومنه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[٣]، وكل الفضائل منحصرة فى التوسط بين الإفراط والتفريط، فإن رؤوس الفضائل: الحكمة والعفة والشجاعة.

فإن الله تعالى قد ركب فى الإنسان ثلاثة قوى، أحديها مبدأ إدراك الحقائق، وصرف النظر إلى العواقب، والتمييز بين المصالح والمفاسد يعبر عنها بالقوة النطقية، والعقلية، والنفس المطمئنة والملكية.

أما الحكمة: فهى نتيجة تلك القوة العقلية، وهى متوسطة بين

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط ٤/٣٨٦ .

(٢) سورة البقرة: آية ١٤٣ .

(٣) سورة القلم: آية ٢٨ .

الجربزة والغباوة، فتوسطها أن تنتهى القوة العقلية إلى حد يمكن للعقل الوصول إليه، ولا يتجاوز عن الحد الذى وجب أن يتوقف عليه، ولا يتعمق فيما ليس من شأنه التعمق، كالتفكر فى المتشابهات التى أخر علمها إلى الآخرة، والتفتيش فى مسألة القدر والقضاء، والشروع بمرد العقل فى المبدأ والمعاد.

كما هو دأب الفلاسفة، وهذا إفراطها الذى يسمى الجربزة، وأما تفريطها: الغباوة التى هى تعطيل القوة الفكرية بالإرادة، والوقوف عن اكتساب العلوم النافعة.

وأما العفة: فهى نتيجة تهذيب القوة الشهوية البهيمية، والنفس الأمارة التى هى مبدأ جذب المنافع، وطلب الملاذ من المأكل والمشرب، وتلك العفة متوسطة بين الخلاعة والخمود، وتوسطها: انقياد البهيمية للناطقة؛ ليكون تصرفاتها بحسب اقتضاء الناطقة؛ لتسلم من استعباد الهوى إياها، واستخدام اللذات.

فإفراطها: الخلاعة والفجور؛ أى الوقوع فى ازدياد اللذات على ما يجب، وتفريطها: الخمود؛ أى السكون عن طلب اللذات بقدر ما رخص فيه العقل والشرع؛ إيثارًا لا خلقة.

وأما الشجاعة: هى نتيجة تهذيب القوة الغضبية السبعية، والنفس اللوامة، وهى مبدأ الإقدام على الوصول والشوق إلى التسلط والترفع، فتلك الشجاعة متوسطة بين التهور والجبن.

فتوسطها: انقياد السبعية للناطقة فى الأمور؛ ليكون إقدامها على حسب الروية من غير اضطراب فى الأمور الهائلة؛ حتى يكون فعلها جميلًا، وصبرها محمودًا.

وإفراطها: التهور؛ أى الإقدام على ما لا ينبغى.

وتفريطها: الجبن؛ أى الحذر عما ينبغى.

فإذا امتزجت الفضائل الثلاث؛ حصلت من امتزاجها واجتماعها حالة متشابهة هى العدالة، فبهذا الاعتبار عبر عن العدالة بالوساطة، وإليه أشار النبى ﷺ بقوله: «خير الأمور أوسطها»[1].

وإنما يحمد فيها التوسط؛ لأن النفس الحيوانية هى مركب للروح الإنسانية، فلا بد من توسطها؛ لئلا يضعف عن السير ولا تجمح، بل ينقاد للروح، فالحكمة فى النفس البهيمية؛ بقاء البدن الذى هو مركب النفس الناطقة، لتصل بذلك إلى كمالها اللائق بها، ومقصدها المتوجه إليه، وفى السبعية كسر البهيمية وقهرها، ورفع الفساد المتوقع من استلائها، واشتراط التوسط فى أفعالها؛ لئلا يتعبد الناطقة فى هواها وتصرفها عن كمالها ومقصدها.

وقد مثل ذلك بفارس استردف سبعًا للاصطياد، فإن انقاد السبع والبهيمة للفارس؛ استعملها على ما ينبغى؛ حصل مقصود الكل، فوصل الفارس إلى الصيد، والسبع إلى الطعمة، والبهيمة إلى العلف، وإلا هلك الكل.

فإذا عرفت هذا، واستعملت الكل فى موضعها؛ فقد كنت فقيها كل الفقاهة، أكملت النفس البشرية التى جئت إلى هذا العالم لتكميلها، كما قيل.

قد اتفق آراء أولى الألباب من المسلمين وسائر أهل الكتاب؛ أن

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن مطرف ٥/ ٢٦١ .

الحكمة فى إنزال الكتب، وإرسال الرسل، وبعث الأنبياء، وتبيين السبل؛ فإنما هى تكميل النفوس البشرية، وإرشادها إلى طريق به يحصل تكميلها وإسعادها.

وتقرر أن كمالها إنما هو بحسب قوتها النظرية والعملية، وكمالها باعتبار الأولى: معرفة الحقائق كما هى، وباعتبار الثانية: القيام بالأمور على ما ينبغى.

وبالجملة؛ العلم بالمبدء والمعاد وما بينهما، والعمل بما يلائم نظام المعاش ونجاة المعاد، ومقتضاهما؛ تحصيلًا لسعادة الدارين، وإحرازًا لفضيلة الكونين اللتين أقصاهما الفوز برضاء الرحمن، وتشرف بمشاهدة جمال الملك المنان.

ولاشك أن العقل لو خلى ونفسه؛ لا يقدر على تحصل هذه المطالب السمعية، ونيل السبيل إلى هذه المآرب السنية، بل لا بد من مرشد وهاد؛ بحيث يكون العقل فى إطاعة له وانقياد.

وهو الشرع المنجى لمن يتوسل به عن سفلى دكات الجحيم، والموصل لمن يلتجئ إليه إلى أعلى درجات النعيم.

فينبغى للمؤمن أن يلازم على حراسة دينه وحدود شرعه إلى أن يموت، ولا يجاوز حدود الشرع، فيكون على الجد دون الهزل فى أمر دينه، ويحذر عما لا يعنيه، وهو ما لو ترك لم يفت به ثواب، ولم ينجر به ضرر.

يحكى أن أبا يوسف دخل على هارون الرشيد وعنده رجلان يناظران فى الكلام، فقال الرشيد: احكم بينهما يا أبا يوسف. فقال: يا أمير المؤمنين! أنا لا أشتغل بما لا يعنى.

فاستحسن الخليفة ذلك، وأمر له بعشرة آلاف درهم، وأمر أن يكتب فى الديون أن أبا يوسف أخذ عشرة آلاف درهم بترك ما لا يعنيه. كذا فى المضمرات.

فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون العاقل فى السكوت إذا رأى من اتخذ دينه ملعبة من أهل الدعوى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1] يعنى: ما خلقناهم إلا للعبادة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[3] أى ملابسين بالحق؛ يعنى: مشتغلين بالعبادة، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[4].

واللعب والطرب من فعل السامرى حين أخرج لهم عجلًا كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾[5].

وقد مدح الله تعالى عباده الذين يمشون على الأرض هونًا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[6].

وقال تعالى وصف أوليائه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[7].

---

(١) سورة الدخان: الآيتان ٣٨-٣٩ .

(٢) سورة الذاريات: آية ٥٦ .

(٣) سورة الحجر: آية ٨٥ .

(٤) سورة لقمان: آية ١٨ .

(٥) سورة طه: آية ٨٨ .

(٦) سورة الفرقان: آية ٦٣ .

(٧) سورة الزمر: آية ٢٣ .

يعنى: «يشبه بعضه بعضًا فى الحسن، ويصدق بعضه بعضا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف»، ﴿مَّثَانِيَ﴾ أى «يثنى فيه ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهى، والأخبار، والأحكام» ﴿تَقْشَعِرُّ﴾؛ أى تضطرب وترتعد وتنقبض ﴿مِنْهُ﴾ أى من سماع القرآن ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

«والإقشعرار: تغير فى جلد الإنسان عند الوجل والخوف، وقيل: المراد من الجلد القلوب»، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى لذكر الله ورحمته، قال ﷺ: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما تحاتت عن الشجرة اليابسة ورقها»[1].

روى البغوى بسنده عن يزيد بن عبد الله بن الهاد بهذا الإسناد قال ﷺ: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى؛ حرمه الله تعالى على النار»[2].

قال قتادة: هذا نعت أولياء الله تعالى، نعتهم الله تعالى بذلك، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك من أهل البدع، وهو من الشيطان.

عروة بن الزبير قال: قلت لجدتى أسماء بنت أبى بكر: كيف كان أصحاب النبى ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى؛ تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم. قال: قلت: إن ناسًا اليوم من أهل العراق إذا قرئ عليهم القرآن خر مغشيًا عليه. فقالت: أعوذ

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث العباس بن عبد المطلب ١/ ٤٩١ .

(٢) رواه البغوى بسنده عن العابس بن عبد المطلب. انظر: تفسير البغوى ٤/ ١٣ .

بالله تعالى من الشيطان الرجيم[١].

وقال ابن عمر -رضى الله عنهما-: إن الشيطان ليدخل فى جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ.

فلا بد من اتباع الرسول ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢]، فينبغى للمؤمن أن يكون على الوجل والسكينة والوقار عند سماع القرآن كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣].

ويجب ترك من اتخذ دينه لهوًا كما قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾[٤] اللهو: ما يوجب الغفلة عن الحق، كما دلت هذه الآيات العشرة من القرآن على حرمة الرقص، والدور، والحركة الموزونة وغير الموزونة.

والصعق، والنعق، وضرب اليد، وغير ذلك مما يفعله الجاهلون من أهل الدعوى.

كذلك يدل الأحاديث النبوية على حرمتها، منها ما روى عن سعيد بن المسيب: أنه مشى -أو دار- رجل، وسقط فى حلقه الذكر فى عهد النبى ﷺ، فقال ﷺ لأصحابه: «اذبحوه»، فقصدوا ذلك، ثم قال ﷺ: «لا تذبحوه، ولكن اربطوه هذا العمود، لا أبرح من مكانى هذا حتى يجدد إيمانه»[٥].

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ٢/ ٣٦٥ .

(٢) سورة آل عمران: آية ٣١ .

(٣) سورة الأنفال: آية ٢ .

(٤) سورة الأنعام: آية ٧٠ .

(٥) لم نقف عليه.

وعن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- أنه مر برجل من أهل العراق ساقطا مغشيا عليه، قال: ما أصاب هذا؟ قالوا: إنه متى سمع القرآن والذكر هكذا يسقط ويزول عقله. قال: «نحن أخشى منه من الله، ولا يزول عقولنا، إن الشيطان دخل فى جوفه، وهذا من عمل الشيطان، ما هذا من فعل أصحاب النبى ﷺ»(١).

وقال ﷺ: «كل لعب وكل لهو حرام إلا ثلاث: تأديب الرجل لفرسه، ومناضلته عن قوسه، ولعبه مع أهله»(٢).

وعن عبد الله بن الزبير ﷺ قال: «قلت لجدتى أسماء بنت أبى بكر: كيف كان أصحاب النبى ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن؟ قال: كما نعتهم الله تعالى»، سبق ذكره.

وذكر أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه المسمى بـ(تلبيس إبليس) قال: جئت إلى أبى، فقال: أين كنت؟ قلت وجدت أقوامًا ما وجدت خيرًا منهم، يذكرون الله تعالى، فرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله تعالى، فقعدت معهم، قال: لا تقعد معهم بعدها، فقال: رأيت النبى ﷺ يتلو القرآن.

ورأيت أبا بكر وعمر يتلوا القرآن فلا يصيبهم شىء غير الإقشعرار والبكاء، يفيضان الدموع هذا، أفتراهم من أبى بكر وعمر. ورأيت أن ذلك كذلك، فتركتهم.

وروى أنس بن مالك حين ذكر عنده قوم يفعلون عند الذكر من

---

(١) رواه البغوى بسنده عن ابن عمر. انظر: تفسير البغوى ٤/ ١٣ .

(٢) رواه أبو داود من حديث عقبة بن عامر، ٣/ ١٣ .

الصعق والنعق أنه قال: «لقد رأيتنا وعظنا النبى ﷺ ذات يوم حتى سمعت للقوم خنينا حين أخذتهم الموعظة، وما سقط منهم أحد أبدًا»(١).

وروى أن النبى ﷺ وعظ لأصحابه، فصعق رجل فى مجلسه ووثب، فقال النبى ﷺ: «من ذا الذى يلبس علينا دينه؛ إن كان صادقًا فقد شهر نفسه، وإن كان كاذبًا محقه الله تعالى»(٢).

وقال النبى ﷺ: «كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار».

وقال النبى ﷺ: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، صدق رسول الله ﷺ.

وما نقل فى العوارف فهو كذب، كذا ذكره فارق فى كتابه، وكذا فى الموضوعات الكبرى، وذكر فى كتب كثيرة هذا الحديث بالكذب، وكذا ذكر صاحب النهاية فى كتابه المسمى بدامغة المبتدعين؛ بالكذب والافتراء، وعد ذلك من السفاهة التى أوجبت تنزيه النبى ﷺ، ومن نسب هذا الفعل إلى النبى ﷺ؛ خرج من الدنيا بغير إيمان -والعياذ بالله تعالى- والقرآن يقرأ عليه من أوله إلى آخره، ولم يرو أحد أنه ﷺ تواجد من القرآن.

فكيف يكون من بيت الأعرابى، على الخصوص أن صاحب البيت غير معلوم أنه كافر أو مسلم، فعلم من ذلك أن هذا الفعلا لا

---

(١) رواه ابن الجوزى فى تلبيس إبليس ص٢٢٣ .

(٢) رواه ابن عدى من حديث أنس بن مالك ﷺ ، انظر: الكامل فى ضعفاء الرجال ٥/ ٣٤٧ .

يصدر عن النبى ﷺ، وأن مثل هذا الفعل لا يصدر عمن كان له أدنى لب؛ فكيف يكون من أشرف المخلوقات! فهذا افتراء.

وقال النبى ﷺ: «أفضل الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار».

فإذا ثبت عندك أن المحدثا التى مضى ذكرها حرام بالكتاب والسنة؛ فالآن اسمع من أقوال الفقهاء وأصحاب الفتاوى ماذا يقولون:

قال ضياء الأئمة فى فتاويه: ويكره الصعق عند قراءة القرآن؛ لأنه الرياء، وهو من الشيطان، وقد شدد الصحابة والتابعون والسلف الصالحون فى المنع من الزعق والصياح عند القراءة.

وقال نجم الدين الكبرى فى أسراره: السقوط عند قراءة القرآن، وعند التهليل، أو التسبيح، أو التحميد، أو التكبير على طريق الوجد يكره كراهة تحريمية، وقيل: يكفر، وكذا الرقص وضرب الرجل على الأرض عند ذلك.

وذكر الإمام العالم عبد الله فى فتاواه: وعن النبى ﷺ أنه كره رفع الصوت عند قراءة القرآن والجنازة والزحف والتذكير، فما ظنك عند الغناء الذى يسمونه وجدًا.

وذكر الإمام التقى النطيحى فى مختصره المحيط: ويكره ترك الأدب فى الذكر، ويحرم ضرب الرجل على الأرض؛ لأنه لعب، وكره الدوران ونعق النعاقين، والوجد والتواجد.

وذكر الإمام المرغينانى فى كتابه المنبع فى شرح المجمع: قد

انعقد الإجماع على أن اللعب وضرب الرجل على الأرض، والوجد والتواجد حرام، وفى الذكر أشد حرمة وأغلظ.

وذكر الزاهدى فى فتاوى حاوية: السقوط عند قراءة القرآن أو الذكر أو التسبيح على طريق الوجد تكر كراهية تحريم، وقيل: يكفر، وكذا الرقص، وضرب الرجل عند ذلك.

وذكر الإمام الثقفى حسين بن على السغناقى شارح الهداية صاحب النهاية فى كتابه المسمى بدامغة المبتدعين: سئل الإمام الحلوانى عمن سموا أنفسهم بالصوفية، واختصوا بنوع لبسة، واشتغلوا باللهو والرقص.

وادعوا لأنفسهم المنزل؛ فقال: افتروا على الله تعالى كذبًا أم بهم جنة، فليس النبى ﷺ من الدوران، ولا الدوران منه ونهى عن لبس الشهرتين، فليسوا على شىء، ألا ساء ما يزرون.

وذكر الإمام الحلوانى؛ قيل: إن كانوا زائغين عن الطريق المستقيمة هل ينفوا من البلاد لقطع فتنتهم عن العامة؟ فقال: إماطة الأذى عن الطريق أبلغ فى الصيانة، وأمثل فى الديانة، وتمييز الخبيث من الطيب أزكى وأولى.

وذكر الإمام الفائق فى الفتاوى: ويكره المشى فى الذكر، وكذا الدوران، وقيل: يكفر؛ لما روى عن سعيد بن المسيب: أنه مشى أو دار وسقط رجل على عهد النبى... إلخ ذكر الحديث فيما سبق.

وذكر فى مجمع الفتاوى والغنية: ويكره الصعق عند قراءة القرآن، وفى الغنية: رفع الصوت عند استماع القرآن والوعظ يكره كراهية تحريم، ويجب منع الصوفية من رفع الصوت، وتخريق الثياب، ومن

التواجد عند سماع القرآن والذكر، وبذلك سقطت العدالة كاللعب والتغنى كما باللعب بالنرد والتقامر بالشطرنج والنرد وكل لهو يسقط العدالة، كذا فى كتاب صدر الشريعة، واللعب بالشطرنج والنرد، وكل لهو من هذا عندنا.

وعند الشافعى يباح لعب الشطرنج؛ إذ فيه تشحيذ الخاطر، لكن بشرط أن لا تفوته الصلاة، ولا يكون فيه ميسر.

قلنا: هو مظنة فوت الصلاة، وتضييع العمر، واستيلاء الفكر الباطل؛ حتى لا يحس الجوع والعطش، فكيف بغيرهما.

وفيه أيضًا؛ فى باب الشهادة: أو يقامر بالنرد والشطرنج.

وفى الهداية: أو يقامر بالنرد والشطرنج.

ثم قال: «فأما مجرد اللعب بالشطرنج فليس بفسق مانع عن قبول الشهادة؛ لأن للاجتهاد مساغًا».

فهم من هذا أن فى النرد لا يشترط المقامرة.

طولت الكلام فيه؛ لما أن أهل الزمان اشتغلوا فى لعب الشطرنج من أهل العلم وغيرهم، لا يبالون، بل لا يحرمونه، وغيره من أمثاله.

وبعدما ذكرت الأدلة الثلاث على حرمة ما نحن فيه من المحدثات المختلفة المخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة، نذكر من أقوال المشائخ العظام:

روى عن نجم الدين الكبرى فى كتابه المسمى بتحفة البررة قال: روى السهروردى عن صاحب الكشف المحجوب أبى الحسن على

بن عثمان قال: سمعت الشيخ أبا العباس السقالى يقول: كنت فى مجلس قوم اشتغلوا بالسماع، فرأيت الشياطين عريًا يطوفون ويلعبون بين أيديهم، وينفخون فيهم؛ فيتواجدون بذلك.

وقال الشيخ السهروردى فى آداب المريدين: ويكره للمريد سماع الغزل والأوصاف.

وحكى عن بعضهم أنه قال: السماع شهوة فى شبهة.

روى الشيخ جنيد: أن شابًا كان يصحب الجنيد، فلما سمع شيئًا زعق ونعر، فقال له الجنيد: إن ظهر منك شىء من ذلك فلا تصحبنى. وكان ذلك يضبط نفسه، وربما كان يقطر من كل شعرة قطرة منه، ففرق يومًا من الأيام، فحين زعق زعقة خرجت روحه معها.

وروى عن جنيد قال: كل مريد مال إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

وفى الأذكار العشرة: فاعلم أنه كذاب شيطان.

وروى أن رجلًا فازع فى مجلس الحسن البصرى، فقال الحسن له: «إن فازعت لرضاء الله تعالى فقد أعلمت الناس نفسك، فكنت مرائيًا، وإن لم يكن لرضاء الله تعالى فكنت هالكًا».

وقال الشيخ السهروردى فى «آداب المريدين»: عن ابن عباس قال: «رأيت النبى ﷺ فى المنام وكأنى جالس فى مسجد دمشق أترنم بشىء، فصعد المسجد من باب الدرج ومعه أبو بكر وعمر، فنظر إلى فقال: يا بنى الغلط فى هذا أكثر من الصواب».

روى النجم الدين الكبرى فى كتابه بتحفة البررة: ومنها ربما خلطوا وجدهم بجنون ما وقفوا فى اعتراض، وتركوا بعض آداب الصحبة، وغفلوا عن مراقبة باطنهم، فيتصرف الشيطان فيهم، وسولت أنفسهم وأغوتهم، وكثيرًا ما يكون هذه التصرفات فى صورة الوجد وإظهار غلبات الأحوال.

وذكر نجم الدين الكبرى فى إرشاد المرتدين: سئل أبو على الروذبارى عن السماع؛ فقال: ليتنا تخلصنا منه رأسًا برأس.

يعنى؛ كنا فيهم من الخاسرين.

سئل جنيد وغيره عن السماع ومعناه؛ قال: أليس السماع أجيد من الغيبة، قال: كذا وكذا أربعين سنة يغتاب.

يعنى الدور فى السماع مرة؛ شر من أربعين سنة فى الغيبة، عبروا لفظ كذا وكذا أربعين سنة على الخصوص.

ورد فى الحديث: «الغيبة أشد من ثلاثين زنية فى الإسلام»[1].

ذكر الغزالى هذا الحديث فى البداية.

ذكر فى أذكار عشرة فى السماع: جوز السماع الجنيد، ومنعه سرى سقطى، لم يمنع جنيد سرى، ثم قال سرى: يا جنيد! إن سماعك إذا كان يوم القيامة فى أى كفة الميزان يوضع، فى جانب الخير أو الشر؟

فقال جنيد: إن قلت: يوضع فى جانب الخير؛ كذبت، وإن قلت: فى الشر؛ أقررت أنه حرام، تبت عن السماع.

---

(١) رواه البيهقى والبيهقى فى الشعب ٣٠٦/٥ .

وبعد ذلك؛ إن العقل يشهد على قباحة ذلك؛ لأن الذكر محل الخشوع، ومعنى الخشوع: السكون.

فترك ذلك مكروه كراهة تحريم، وأن هذا الفعل من أفعال البهائم، وأنت إنسا ن على الخصوص، تزعم أنك من أهل الله والخشوع، فهذا مخل الخشوع.

مع ذلك إن هذا الفعل القبيح مذموم عند ملوك الدنيا؛ إن فعلت ذلك عنده مع ذكر اسمه فتهلك؛ فكيف فى ذكر رب العالمين.

وأيضًا كذلك إن فعلت هذا بالوجد فأين الوضوء؟ وإن كنت على الوضوء ما كنت من أهل الوجد.

وأيضًا كذلك: إن رأس إسرافيل تحت العرش، وقدمه تحت الأرض، فإذا غلب خشية الله تعالى يصغر فيكون كالطير الصغير؛ فكيف أنت أيها المسكين الكذاب تتعظم؟!

وأيضًا كذلك لو كان هذا الفعل حسنًا لفعله الأنبياء.

وأيضًا كذلك يقول ابن جوزى: ما رأى ولى الحق قط يفعل لا فعل مجنون الخلق، فلا ينبغى للعاقل أن يفعل الفعل الذى كان قبيحًا من كل الوجوه.

وأذكر فى هذا الباب من مسألة بعض الفتاوى إن شاء الله تعالى.

قال حيوة الحيوان: وكان مدة عبادة بنى إسرائيل للعجل أربعين يومًا، فعوقب فى التيه أربعين سنة، فجعل الله تعالى كل سنة فى مقابلة كل يوم.

وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث حذيفة

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم»[(١)].

وساق الكلام إلى أن قال- نقل القرطبى عن أبى بكر الطرطوشى أنه سئل عن قوم يقرؤون شيئًا من القرآن، م أنشد لهم منشد شيئًا من الشعر فيرقصون ويطربون، ويضربون بالدف والسبابة؛ هل الحضور معهم حلال أو لا؟

فقال: هذا فى مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلًا جسدًا له خوار؛ قاموا يرقصون حوله ويتواجدون، فهو دين الكفار، وعباد العجل، وإنما كان مجلس النبى ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار.

فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم.

هذا مذهب مالك، والشافعى، وأبى حنيفة، وأحمد، وغيرهم من أئمة المسلمين.

وفى القنية: سئل الإمام الحلوانى عن الصوفية، الذين اختصوا بنزع لبسة، واشتغلوا باللهو والرقص، وادعوا لأنفسهم المنزلة؛ فقال: افتروا على الله تعالى كذبًا أم بهم جنة.

---

(١) أورده الديلمى فى الفردوس ٣/ ٣٣٨ .

فليس النبى ﷺ من الدوران ولا الدوران منه ونهى عن لبس الشهرتين، فليسوا على شىء، ألا ساء ما يزرون.

قيل: رن كانوا زائغين عن الطريقة المستقيمة؛ هل ينفون من البلاد لقطع فتنتهم عن العامة؟

قال: إماطة الأذى أبلغ وأمثل فى الديانة، وتمييز الخبيث من الطيب أزكى وأولى.

وفى كراهة روضة الناطفى: إن اجتمع عشرة أو فوقها، أو دونها، فى موضع يعبدون الله تعالى، ويفرغون أنفسهم لذلك؛ كره لهم ذلك، ولزوم الجماعات فى الأمصار والجمعة أحب إلى، وإن معهم أهلوهم.

وفى الواجدية شرح النقاية: وسماع أصوات الملاهى من المناهى، واستطابتها فسق، واستحلالها كفر، والدف وأشباهه حرام، وكذا الرقص، وتخريق الثوب، والصياح هو الملاهى، ولو عند قراءة القرآن، ولا يقبل شهادة من حضر مجالسة هذا النوع من السماع، وتسميته سماعًا مطلقًا من رقة الدين وترك الآداب؛ لأن السماع المطلق اسم لسماع التفاسير والسنن النبوية. هذا كلامه.

وفى التحفة: ويجب منع رفع الصوفية الذين يدعون الوجد والمحبة من رفع الصوت وتمزيق الثياب عند سماع الغنى؛ لأن ذلك حرام عند سماع القرآن، فكيف عند الغناء الذى هو حرام، خصوصًا فى هذا الزمان؛ فإنهم يحدثون الأفعال المبتدعة كثيرًا. هذا كلامه.

وفى الفتاوى البزازية: وضرب القضيب والرقص حرام بالإجماع عند مالك والشافعى وأحمد ف مواضع من كتابه.

وسيد الطريقة الشيخ أحمد اليسوى صرح بحرمته.

ورأيت فتوى شيخ الإسلام السيد جلال الملة والدين الكرمانى: أن مستحل هذا الرقص كافر.

ولما علم أن حرمته بالإجماع؛ لزم أن يكفر مستحله.

وللشيخ الزمخشرى فى كشافه كلمات فيهم يقوم بها الطامة عليهم.

ولصاحب النهاية، وللإمام المحبوبى أيضًا أشد من ذلك، هذا كلامه:

لقد علمت كثرة الفرق الضالين من بين المكلفين الذين هم شرذمة قليلة من بنى آدم بالنسبة إلى الجن والشياطين والملائكة الذين لا يعد لكثرتهم، وهم بالنسبة إلى غير المكلفين أيضًا قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

كما روى عن أبى هريرة ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق الخلق حين خلق وهم أصناف؛ الملائكة، والجن، والإنس والشياطين.

ثم جعل هؤلاء عشرة أجزاء، فتسعة منهم، الملائكة، وجزء واحد الشياطين والجن والإنس.

ثم جعل هؤلاء الثلاثة تسعة منهم الثمانية الشياطين، وجزء واحد الجن والإنس.

ثم جعل الجن والإنس عشرة أجزاء، فتسعة منهم الجن، وجزء واحد الإنس.

---

(١) سورة المدثر: آية ٣١.

ثم جعل الإنس مائة وخمسة وعشرين جزءًا: فجعل منهم مائة جزء فى بلاد الهند، فمنهم ساطوخ؛ وهم أناس رؤوسهم مثل رؤوس الكلب، ومالوخ؛ وهم أنا أعينهم على صدورهم، وماسوخ؛ وهم أناس آذانهم كآذان الفيل، ومالوق؛ وهم أناس لا يطاوعهم أرجلهم، يسمون دوال ياي، ومصيرهم كلهم فى النار.

فجعل اثنى عشر جزءًا فى بلاد الروم، والنسطورية، والملكائية، واليعقوبية، ومصيرهم جميعًا إلى النار.

وجعل ستة أجزاء منهم فى المشرق: يأجوج ومأجوج، وترك خاقان، وترك خلبنح، وترك خرز، وترك خرخبر، وكلهم فى النار.

فجعل ستة أجزاء منهم فى المغرب: الزنج، والزط والحبشة، والنوبة، وبربر، وسائر كفار العرب، ومصيرهم إلى النار.

وبقى من الإنس من أهل التوحيد جزء واحد، فجزئهم الله تعالى ثلاثًا وسبعين جزءًا؛ اثنان وسبعون على خطر.

وهم أهل البدع والضلالة، وفرقة ناجية، وهم أهل السنة والجماعة وحسابهم إلى الله تعالى يغفر لمن يشاء» هذا ما ذكره النسفى فى تفسيره.

فاعتبروا رحمكم الله تعالى؛ فانظروا إلى قلة أهل الجنة، وكثرة أهل النار من هؤلاء المكلفين.

ولكن مع قلة أهل الجنة وهم من هذه الأمة كثيرة كما قال ﷺ لأصحابه: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة.

قلنا: نعم. فقال ﷺ: والذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة؛ وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم فى أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأحمر»[1]. صدق رسول الله ﷺ.

الحمد لله الذى جعلنا من القليلين، وجعل رحمته قريبًا من المحسنين.

فإذا علم أن النجاة فى العلم والعمل به؛ فلا بد أن يكون من مرادات المؤمن فى كل الأقوال والأفعال والأحوال رضاء ربه دون إرادات النفس من الهوس والهواء، ويتبع سبيل الهدى وهو طريق المصطفى ﷺ، ولا يتبع الخيالات فى توحيد الفعل والصفات والذات، ومنها هلك كثير من أهل التصوف؛ تخيلوا خيالات سموها توحيدًا، وطالعوا مطالعات فهموا ما يليق بخيالاتهم تقليدًا، تزندقت طائفة منهم، وألحدت أخرى، وهتكت أخرى حرمة الشريعة، وكفرت بما جاء به رسول الله ﷺ، وهى أباطيل وضلالات وجهالات، وحصل لهم من التعلقات بالكائنات، والميل إلى الشهوات والمستلذات التى هى المعبودات الباطلة.

ومن الميل إلى الكشوفات الكونية والكرامات العيانية من جملة هوس النفس وهواها، ومن التفت إليها فهو مندرج فيما بين الممكورين، بل إن وقعت بلا طلبه يخاف عليه من الاستدراج.

قال بعض المشايخ: إذا دخل شخص سالك فى بستان، وقالت

---

(١) رواه البخارى، كتاب الرقاق، باب الحشر، ١١/ ٣٨٥ .

طيور أشجار ذلك البستان: السلام عليك يا ولى الله، فإن لم يفطن وظن أنه مكرمة له فقد مكر به وهو لم يشعر.

وجميع المرشدين نفروا المريدين من الميل إلى الكرامات العيانية، وقالوا: إنها حيض الرجال.

والكشف المعتبر هو انكشاف قبح الدنيا وفنائها، وانكشاف بهجة العقبى وبقائها، ولذلك أنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ أى للأعراض عن الدنيا والإقبال على العقبى، ذلك محض رحمته، سبقت عنايته فى بدايته، وظهرت كرامته فى نهايته بفضله وكرمه.

ما الإسلام إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ومن تمسك بهما فقد هدى إلى صراط مستقيم.

فينبغى للمؤمن أن يكون على محافظة الفرائض والواجبات، والسنن والآداب؛ فيكمل إيمانه؛ لأن مشروعية الفرائض حفظ الإيمان، ومشروعية الواجبات لتكميل الفرائض، ومشروعية السنن لتكميل الواجبات، ومشروعية الآداب لتكميل السنن، وقدر العلوم بقدر المعلومات.

قال فى الباب الثامن والثلاثين من حياة القلوب، فى ذم ترك السنة وارتكاب البدعة، وثواب العمل بالسنة، وسنة الأبدان: قال الله تعالى فى سورة آل عمران ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أى فى الاختلاف ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

«قال أكثر المفسرين: هم اليهود والنصارى وقال بعضهم: المبتدعة من هذه الأمة. وقال أبو أمامة: هم الحرورية بالشام».

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لا يرفع عنهم أبدًا. ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[1] أي: يكون وجوه الكافرين مسودة بالكفر والارتداد عن الإيمان؛ كوجوه بنى قريظة والنضير. «وقيل: تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين».

«وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه قرأ فى هذه الآية، قال: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة».

«قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس -رضى الله عنهما-: إذا كان يوم القيامة رفع لكل قوم ما كانوا يعبدون، فيسعى كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فإذا انتهوا إليه حزنوا، تسود وجوههم من الحزن، ويؤتى أهل القبلة واليهود والنصارى، فيأتيهم الله تعالى فيسجد له من كان يسجد له في الدنيا مطيعًا مؤمنًا، وبقى أهل الكتاب والمنافقون لا يستطيعون السجود، ثم يؤذن لهم فيرفعون رؤوسهم ووجوه المؤمنين مثل الثلج بياضًا.

والمنافقون وأهل الكتاب إذا نظروا إلى وجوه المؤمنين حزنوا حزنًا شديدًا، فاسودت وجوههم، فيقولون: ربنا مالنا اسودت وجوهنا؟ فو الله ما كان مشركين؟!. فيقول الله تعالى للملائكة: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[2].

فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ بالاستفهام

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٦ .

(٢) سورة الأنعام: آية ٢٤ .

توبيخًا ﴿بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فإن قيل: كيف يقال: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، *«وهم لم يكونوا مؤمنين؟.

قيل: حكى عن أبى بن كعب ﷺ أنه أراد به الإيمان يوم الميثاق حين قال لهم ربهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[1]. يقول: أكفرتم بعد إيمانكم يوم الميثاق.

وقال الحسن: هم المنافقون؛ تكلموا بالإيمان بألسنتهم، وأنكروا بقلوبهم.

وقال عكرمة: إنهم أهل الكتاب؛ آمنوا بأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام قبل أن تبعث، فلما بعثت كفروا به.

وقال قوم: هم من أهل قبلتنا.

وقال أبو أمامة: هم الخوارج.

وقال قتادة: هم أهل البدع.

﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالقرآن، وبمحمد ﷺ، قال النبى ﷺ: «إنى فرطكم -أى مقدمكم- على الحوض، يرد على، من شرب لم يظمأ أبدًا، ليردن على أقوام أعرفهم، ثم يحال بينى وبينهم، فأقول: إنهم منى -أى من أمتى- فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا من البدعة بعدك. فأقول: سحقا سحقا -أى بعدًا بعدًا من حوضى- لمن غير سنتى من بعدى»[2].

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٢ .

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا محمد ﷺ وصفاته.

روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «إن الله تعالى حجب التوبة على كل صاحب بدعة؛ حتى يدع بدعته» رواه الطبرانى، وإسناده حسن.

ورواه ابن ماجه من حديث حذيفة رضي الله عنه، ولفظه قال النبى ﷺ: «لا يقبل الله تعالى لصاحب بدعة صومًا، ولا حجا، ولا عمرة، ولا جهادًا ولا صرفًا -أى فرضًا- ولا عدلًا -أى نقلًا-؛ يخرج من الإسلام كما يخرج الشعرة من العجين».

وروى عن الحسن بن على عن النبى ﷺ: «عمل قليل فى سنة خير من عمل كثير فى بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»[١].

وروى عن عائشة -رضى الله عنها- عن النبى ﷺ قال: «ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبى مجاب -أى مستجاب الدعوة-؛ الزائد فى كتاب الله تعالى، والمكذب بقدر الله تعالى، والمتسلط على أمتى بالجبروت.

ليذل من أعز الله تعالى، ويعز من أذل الله تعالى، والمستحل حرمة الله تعالى، والمستحل من عترتى ما حرم الله تعالى، والتارك لسنتى». رواه الطبرانى، وابن حبان فى صحيحه[٢].

وروى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن إبليس

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان بسنده من قول الحسن، ٧/ ٧٢ .

(٢) رواه الترمذى ٤/ ٣٩٧، برقم ٢١٥٤، والبيهقى ٣/ ٣٤٣ .

قال: أهلكتهم بالذنوب؛ فأهلكونى بالاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون؛ فلا يستغفرون» رواه ابن أبى عاصم وغيره.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «الكل شىء آفة، وآفة هذا الدين الأهواء».

وروى الشعبى قال: «إنما سميت الأهواء؛ لأنها تهوى بصاحبها فى النار»[1]. قوله: «تهوى» أى: تسقط.

وروى عن معاوية قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتى وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة، ثنتان وسبعون فى النار، وواحدة فى الجنة، قالوا: يا رسول الله! ما هذه الواحدة؟.

قال: أهل السنة والجماعة». رواه أحمد، وأبو داود وزاد فى روايته: «وإنه سيخرج من أمتى أقوم يتجارى -من الجريان- بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله الكلب».

قوله: «الكلب» بفتح الكاف واللام؛ هو داء يعرض للإنسان من عضة الكلب، وعلامة ذلك الداء فى الكب: أن يحمر عيناه، ولا يزال أن يدخل ذنبه بين رجليه، فإذا رأى إنسانًا ساوره؛ أى عارضه.

---

(١) رواه اللالكائى بسنده إلى الشعبى ١/ ١٣٠ .

وأما قوله ﷺ: «سبعين» لا على الحصر، بل للكثرة؛ يعنى ستفترق أمتى فرقًا كثيرة كما تفرقت اليهود والنصارى، ومعرفتهم ومعرفة مذاهبهم واجبة علينا حتى نجتنب عنهم وعن معتقداتهم.

* * *